

مظاهر التراث في ديوان بدوى الجبل

سندس كردآبادى

استاذة مساعدة بجامعة آزاد الإسلامية، طهران مركز، قسم اللغة العربية و آدابها

سعيده رنجبرنژاد

طالبة الماجستير بجامعة آزاد الإسلامية، طهران مركز

تاريخ پذيرش: ۱۳۹۰/۴/۳۰

تاريخ دريافت: ۱۳۹۰/۴/۱۴

الملخص

شاع في الشعر العربي المعاصر ظاهرة توظيف التراث و قد بات من أبرز و أهم سمات هذه الفترة. فقد استطاع الشعراء العرب و من خلال استخدامهم التراث، التعبير عن مفاهيم قد يصعب أحياناً التعبير عنها بشكل مباشر و صريح كالرفض و التمرد و الحرية أو النصر و الهزيمة. تهدف هذه الدراسة إلى تبين هذه الظاهرة في ديوان الشاعر السورى بدوى الجبل الذى لم تتم له دراسة مستقلة خاصة إلا بإشارات متناثرة في طيات الكتب و الدراسات. صُنفت ملامح التراث و أشكاله عند الشاعر البدوى تحت أربعة بنود: التراث التاريخى، التراث الدينى، التراث الأدبى، التراث الصوفى.

الكلمات الدليلية: الشعر المعاصر، بدوى الجبل، التراث.

نبذة عن حياة الشاعر

ولد الشاعر محمد سليمان الأحمد سنة ۱۹۰۳م في قرية «ديفة» التابعة لقضاء «الحفة» في جبل «اللكام» بمحافظة اللاذقية (القطار، ۲۰۰۰، ۲۱). كان والده الشيخ سليمان الأحمد بن عبود عضواً في المجمع العلمى بدمشق و أصبح بيته مركزاً دينياً و علمياً و محجة لطالبي المعرفة، يرتل فيه القرآن و يجود الشعر (الجبل، ۲۰۰۰، ۷). و أخذ يعلمه اللغة و الدواوين الشعرية و الكتب التى إهتم بها أهل هذا الجيل و أهمها نهج البلاغة للإمام على (ع) و ديوان الشريف الرضى و تلميذه مهيار ثم القرآن الكريم الذى هو معلم الأدب الأول. فى

هذا الجو اللغوي الرفيع نشأت شاعرية البدوى (الجندي، ١٩٦٥، ٥٥). وقد ظهر على الناس بشعره و هو فى التاسعة عشرة من عمره بعد أن عنى به أبوه فى نشأته الشعرية و حوالى هذا السن أظهر ديوانه فى مئتى صفحة و سَمَّاه «الشفق» و أقبل الأدباء و العلماء عليه إقبالاً لم يشهده شعر شاب قبله (الدهان، ١٩٦٨، ٢٢٧). أحبّ البدوى الشعر القديم و وجد مع تنامى و عيه كل الأسباب لإقتفاء أثر هذا الشعر و الإقتداء به. و قد حفظ البدوى مع رعييل من الرواد جيد الأدب القديم ثم أقدم هذا الرعييل على معارضة هذا الشعر و عبّر بمحاكاة أسلوبه عن قضايا العصر (الدسوقي، ١٩٦٦، ٢١١/٢). فالفن الشعرى لديه «يقرّه من الأخذ بفلسفته عند الرومانسيين، بوح بما فى النفس يجعله يلتمس العزاء فى مخالطة الطبيعة و كائناتها و يقربه من تلمس حركة الحياة فيها، و إنطاقه صورها بصوته الخاص الذى يمثّل الحزن و الهم أعذب نبراته، و يكون فى مجموعته عماد رؤيته الجمالية نفوذاً فى متلقيه» (الأستر، ٢٠٠٨، ٨٨). و قد تغلب على شعره الطابع الرومانسى تبعاً للمنهج السائد آنذاك (الدهان، ١٩٦٨، ٢٣٠). و قد قال فيه شفيق جبرى: «لا خوف على خلود عقبريته، ما دمنا نحتاج فى كل العصور إلى شكوى الدهر، و الدنيا و الناس، و ما دامت العربية لغة كثير من الخلق، و سيكون شعره غذاءً روحياً لمن يتذوق الشعر». (الخير، ١٩٨٣، ٣٥)

بينما كان ذكر الوطن تتممات على الشفافة إبان الإستعمار الفرنسى جهر بدوى الجبل مع إخوانه بوطنيته و حمل راية الوطن و إنطلق إلى ساحات النضال السياسى (الجبل، ٢٠٠٠، ٩). بعد دخول المحتلين الأراضى السورية، توارى الشاعر.

عن الأنظار بعد أن كان هناك أمر بإعتقاله يحمله المحتلون معهم (القنطار، ٢٠٠٠، ٣٩). ثم سجن فى سجن الديوان العرفى الحربى فى زقاق البلاط ببيروت حيث بقى ستة عشر شهراً، و لفت زعماء محافظة اللاذقية نظر المراجع المسؤولة إلى صغر سن الشاعر المعتقل و قد تبين لهم فيما بعد أن الشاعر قد حكم غيائياً و كانوا يظنونهم أكبر مما هو فى الواقع بكثير ولم يكن ليخطر ببالهم أنه دون سن الرشد. فأتى أمر من وزارة الحربية يوقف التنفيذ و هكذا أُطلق سراح الشاعر المعاصر. (عكاش، ١٩٦٨، ١٢)

عندما إستقلت سوريا، أسهم البدوى فى بناء الوطن نائباً ثم وزيراً مراراً عديدة منذ عام ١٩٣٠ و لكنه ظل فى كل أحواله الشاعر الذى يغنى الوطن و سعى الفرنسيون إلى كسب وده بالمال و الجاه و شراء صمته بعد أن أقلقهم شعره و لكن جهودهم ذهبت عبثاً (القنطار،

٢٠٠٠، ٤٢). و عن نهاية حياته يقال: «ظهر الثلاثاء الواقع فى ١٨/٨/١٩٨١ توقف قلب الشاعر الكبير بدوى الجبل إلى الأبد عن عمر يناهز الـ٧٨ سنة». (روبرت ب، ١٩٩٦م، ١/٢٩٦)

التراث:

المدلول اللغوى:

الأصل فى كلمة التراث (Heritage) وراث، و تدل مادة وراث فى معاجم اللغة العربية على المال الذى يورثه الأب لأبنائه (وتار، ٢٠٠٢، ١٩). جاء فى لسان العرب: الإرث: الأصل. الإرث فى الحسب و الورث فى المال. و الإرث: الميراث. (ابن منظور، ١٩٩٩، مادة وراث) و إستخدم القرآن الكريم كلمة «التراث» بنفس المعنى الذى ورد فى معاجم اللغة، أى المال: و تأكلون التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (الفجر: ١٩). و لم تستخدم كلمة التراث بالمعنى الإصطلاحى إلا فى العصر الحديث، حيث يتباين مفهوم التراث فى الثقافة العربية المعاصرة من باحث إلى آخر، تبعاً لإختلاف إيديولوجيا الباحثين و تعدد مواقفهم. (وتار، ٢٠٠٢، ١٩)

المدلول الإصطلاحى

إذا كان الباحثون يتفقون على أن التراث ينتمى إلى الزمن الماضى، فإنهم يختلفون بعد ذلك فى تحديد هذا الماضى، فبرى بعضهم أن التراث هو كل ما وصل إلينا من الماضى البعيد (وتار، ٢٠٠٢، ١٩). و يعرف التراث على هذا الأساس بأنه كل ما ورثناه تاريخياً. و هناك من يعتقد أن التراث هو ما جاءنا من الماضى البعيد و القريب أيضاً. (الجابرى، ١٩٩١، ٤٥)

فالحديث عن التراث حديث فى الهوية، فالتراث، تراث أى أمة فى عرف الباحثين و المختصين هو حديث فى ماضى الأمة بمختلف مكونات هذا الماضى، و مكونات ماضى أى أمة هى إمتداد جذورها، و هى عناصر الهوية و خصائص شخصية الأمة. من هذا المنطلق فإن تناول التراث بالبحث و الدراسة و التنقيب يدخل فى باب الواجب تجاه الإنتماء، و تجاه السعى لبناء مستقبل الأمة، لأن من لا ماضى له لا حاضر له، و من لا حاضر له لا مستقبل له. أو كما يقال: «من يطلق ناره على الماضى يطلق المستقبل ناره عليه». و نحن اليوم نرى

كيف أن الشعوب التي لا ماضى لها تبحث عن أى ماض كى تعزز حضورها و حاضرها، بل إن بعضها يختلق الماضى إختلاقاً لصنع هوية، و يبذل من أجل ذلك الغالى قبل الرخيص.

توظيف التراث عند البدوى و أشكاله

«إن تراث الشاعر داخل ضمن التكوين النفسى للشاعر أراد أم لم يرد، شعر بذلك أم لم يشعر، فتراث الأمة حاضر من حاضرها، مؤثر فى تربيتها و فى تكوين شخصيتها و فى عواطفها، و أفكارها و فى آمالها و آلامها و تطلعاتها» (الكبيسى، ١٩٧٨، ١٠). إن لتوظيف التراث عند البدوى أهمية خاصة فى الكشف عن البنية الفنية لقصائده من خلال متابعة هذه الظاهرة و كشف العلاقات التي تربط النص الشعرى الحاضر بالنصوص الغائبة. و هنا يعمد الخطاب الشعرى إلى توجيه قوة ضاغطة، خفية تدفع المتلقى و المخاطب إلى إستحضار النص الغائب من خلال بعض الإشارات و التضمينات لبعض المفردات و التراكيب (شريح، ٢٠٠٥، ١٧١). و فيما يلى نعرض أشكال توظيف التراث و استعمالاته فى ديوان الشاعر بدوى الجبل:

التراث التاريخى

الأحداث التاريخية و الشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهى بإنتهاء وجودها الواقعى، فإلى جانب ذلك لها دلالتها الشمولية الباقية و القابلة للتجدد - على إمتداد التاريخ - فى صيغ و أشكال أخرى. فدلالة البطولة فى قائد معين، أو دلالة النصر فى كسب معركة معينة تظل - بعد إنتهاء الوجود الواقعى لذلك القائد أو تلك المعركة - باقية و صالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة و أحداث جديدة، و هى فى نفس الوقت قابلة لتحمل تأويلات و تفسيرات جديدة (عشرى زايد، ٢٠٠٦، ١٢٠). «إذ إن التاريخ ليس وصفاً لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصر لها، إنه إدراك إنسان معاصر أو حديث له، فليست هناك إذن صورة جامدة ثابتة لأية فترة من هذا الماضى». (ناصر، ٢٠٥)

يختار الشاعر من الشخصيات و الأحداث التاريخية ما يوفق طبيعة الأفكار و القضايا و الهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقى، و من ثم تنعكس طبيعة المرحلة التاريخية و الحضارية التي عاشت الأمم فى الحقبة الأخيرة، و إحباط الكثير من أحلامها، و خيبة أملها

فى الكثير مما كانت تأمل فيه الخير، و سيطرة بعض القوى الجائرة على بعض مقدراته، ينعكس كل ذلك على نوعية الشخصيات و الحوادث التى يستمدّها الشاعر. (عشرى زايد، ١٩٩٧، ١٢٠)

من الظواهر اللافتة فى إستخدامات اللغة الشعرية عند البدوى إحتواؤها الأدائى لمعطيات التاريخ و دلالات التراث، إذ يقوم الشاعر بإستلهاام الحدث التاريخى و الشخصيات التاريخية بغية توظيفها فى بنية النص بما تحمله من دلالات و إشارات، تتيح للشاعر و للمتلقى على ما تفجره الشخصيات التاريخية، أو الموقف التاريخى من مشاعر و دلالات، تنمى القدرة الإيحائية للقصيدة. و تبين القراءة التحليلية لقصائد البدوى، إستحضاره الشخصيات التاريخية المهمة التى تركت بصمات و إحياءات خاصة فى الوجدان العربى و هنا يسقط الشاعر الماضى على الحاضر بغية إثراء دلالات النص عن طريق التأثير و الإيحاء معاً (شرتح، ٢٠٠٥، ١٧١). على سبيل المثال نقرأ له من قصيدة «من وحي الهزيمة» (الجبل، ٢٠٠٠، ١٩١) هذه الأبيات الشعرية:

هل دَرَتْ عَدْنُ أَنْ مَسْجِدَهَا الْأَقْدُسُ	صَى مَكَانٌ مِنْ أَهْلِهِ مَهْجُورٌ؟
أَيْنَ مَسْرَى الْبُرَاقِ، وَالْقُدْسُ وَالْمَهْمُ	دُ وَبَيْتٌ مُقَدَّسٌ مَعْمُورٌ؟
لَمْ يُرْتَلْ قُرْآنٌ أَحْمَدَ فِيهِ	وَ يُزَارُ الْمَبْكَى وَ يُتْلَى الزَّبُورُ
طَوَى الْمَصْحَفُ الْكَرِيمُ، وَ رَاحَتْ	تَشَاكِي آيَاتِهِ وَ السُّطُورُ
تَسْتَبِي الْمَدْنَ وَ الْقَرْىَ هَاتِفَاتٌ	أَيْنَ.. أَيْنَ الرَّشِيدُ وَ الْمَنْصُورُ
أَيْنَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ؟ قَبْرٌ غَرِيبٌ!	مَنْ يَضُمُّ الْغَرِيبَ أَوْ مَنْ يَزُورُ
أَيْنَ آيُ الْقُرْآنِ تُتْلَى عَلَى الْجَمِّ	عَ وَ أَيْنَ التَّهْلِيلُ وَ التَّكْيِيرُ؟
يَا لَذُلِّ الْإِسْلَامِ وَ الْقُدْسِ	نَهَبٌ هَتَكَتْ أَرْضُهُ فَأَيْنَ الْغَيْورُ
قَدْ تَطَوَّلَ الْأَعْمَارُ لَا مَجْدَ فِيهَا	وَ يَضُمُّ الْأَمْجَادَ يَوْمٌ قَصِيرُ

أشار الشاعر الى النبى محمد (ص) و ما كان عليه المسلمون من عظمة و جلال ليمثل و يصور العزة و النصر فى التاريخ الإسلامى. كما يلمح الى حوادث كربلاء و ما حل بالإمام المظلوم الحسين بن على (ع) و من ثم يشير إلى هارون الرشيد و المنصور محاولاً تحريك مشاعر المتلقى و إنفعالاته عن طريق عقد مقارنة بين الماضى و الحاضر و يريد بذلك

الإستحضر أن يحفز المسلمين على الماضى قدماً فى طريق العزة التى إنحرفوا عنها و سقطوا بدلاً عنها فى هاوية الذلة و حضيضها.
و فى قصيدة اخرى تحمل عنوان «فرعون» (الجبل، ٢٠٠٠، ١٥٥-١٥٦) يستحضر الشاعر فيها قصة فرعون و نهايته ليرمز بها إلى الحكام الطغاة و ما سينتابهم أخيراً من انهيار و خذلان:

فرعون مصر: و أنت من رشق المصاحف لا الوليد
فرعون مصر: و أنت من قتل الهواشم لا يزيد
سُميت فرعون الكِنانة و هى تسمية كَنُود
فرعون ذلّ به اليهود و أنت عزّ بك اليهود
طامن غرورك، لم تدّم عاد و لا بقيت ثمود
و لئن ذكرت فإن ذكرك لا الزكى و لا الحميد
و لئن حكمت فإن عيشك لا الهنى و لا الرغيد

عبر البدوى فى هذه القصيدة السياسية عن معاناة عاناها المناضلون فى سجون الطغاة، كما عبر عن صبره و تجلده و إيمانه بقضيته التى من أجلها كافح و اضطهد، و هو يسخر بالطغاة الذين إنهار عرشهم بإرادة الله، و يدين الظلمة و الطغاة فيختار لهم فرعون و يجعله محوراً للقصيدة و يكرره مرات متتالية بوصفه رمزاً للطغاة فى كل العصور. و قد قوى الشاعر من مدلول اللفظ بتكراره الإسم (فرعون). و لعل إحدى مظاهر التهكم و السخرية فى القصيدة تبدو لنا ماثلة عند مقارنته بين الفرعونين إذ إن فرعون القرآن تذلل به اليهود بينما فرعون مصر زمانه تعتر به هذه الفئة.

و يستحضر ما أتى الوليد الخليفة الأموى من منكر حين رشق القرآن: «و أنت من رشق المصاحف لا الوليد»، مشيراً إلى قضية صفين حينما رفع القرآن فوق الرماح. كما يستحضر الخليفة الظالم يزيد بن معاوية و كيف صبّ غضبه على الهاشميين: «و أنت من قتل الهواشم لا يزيد»، و ينسب لطاغية مصر كل ما أتى به هؤلاء الظلمة. كما أنه يشير فى البيت الأخير إلى بقاء ذكر فرعون بين الناس حياً ليكون عبرة للآخرين. و قد استحضر بذلك الآية الشريفة: **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً و إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** . (يونس: ٩٢)

التراث الدينى

كان التراث الدينى فى كل العصور و لدى كل الأمم مصدراً من مصادر الإلهام الشعرى، حيث يستمد منه الشعراء نماذج و موضوعات و صوراً أدبية، و الأدب العالمى حافل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التى تشكل محورها شخصية دينية أو موضوع دينى، أو التى تأثرت بشكل أو بآخر بالتراث الدينى. و «إذا كان الكتاب المقدس هو المصدر الأساسى الذى إستمد منه الأدباء الأوربيون شخصياتهم و نماذجهم الدينية، فإن عدداً كبيراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الدينية الإسلامية، و فى مقدمتها القرآن الكريم، و إستمدوا من هذه المصادر الإسلامية الكثير من الموضوعات و الشخصيات التى كانت محوراً لأعمال أدبية عظيمة». (عشرى زايد، ١٩٩٧، ٧٥)

بالنسبة إلى الشاعر بدوى الجبل فمن أكثر ظواهر الإستدعاء كثافة فى ديوانه إستدعاء الخطاب القرآنى و قد نجح البدوى فى توظيف النص القرآنى، بما يتلائم و سياق قصائده، لذلك ساهمت التراكيب القرآنية - لدى البدوى - فى تشكيل رؤية جديدة للقصيد، و فتحت لها آفاقاً ممتدة، أغنت فضاء قصيدته و عالمه الشعرى بأكمله، حتى أصبحت قصائده أشبه بلوحات فنية. و يمكن القول إن توظيف التراث الدينى فى الشعر يصبح تعزيزاً قوياً لشاعريته و داعماً لإستمراره فى ذاكرة الإنسان. (شريح، ٢٠٠٥، ١٨٠)

هذا و بإمكاننا أن نعالج هذا التراث فى أقسام: ١- القرآن الكريم ٢- شخصيات الأنبياء ٣- الشخصيات المنبوذة.

١- القرآن الكريم

يقوم بدوى الجبل بإستخدام بعض الصور المستوحاة من النصوص القرآنية، بغية التأثير فى المتلقى. فهناك ابيات فى قصيدة «كافور» (الجبل، ٢٠٠٠، ١٤٩) تشير إلى الآية المباركة:

و إذا الموءدة سئلت. بأى ذنب قتلت (التكوير: ٨):
 الضارعات إلى السماء و لا تجاب و لا تعان
 كالأمهات التاكيلات فعز شم و احتضان
 وأد الهجير بناتهن فكل روض صحصحان

صور النص القرآنى هول الجريمة التى كان يرتكبها الجاهليون فى العصر الجاهلى بوأد

البنات فى التراب، و هنّ على قيد الحياة. أما فى النص الشعري فإن الشاعر يعكس الآية، و يعبر عن قسوة الأمهات اللواتى فقدن معنى الأمومة، و تخليين عن دورهن الإنساني و حنانهن الرباني.

و من قصيدة «نم بقلبي» (الجيل، ٢٠٠٠، ١٢٥) نختار الأبيات التالية:

مَنْ رَأَى فِي السَّقَامِ سَعْدًا رَأَى	الفَجْرَ وَدَيْعَ السَّنَا وَسِيمًا طَلِيقًا
سَأَلُوا يَوْمَ سَبَقِهِ كَيْفَ جَلَى	مِنْ سَجَايَاهُ أَنْ يَكُونَ سَبُوقًا
رَاوَدَتْكَ الدُّنْيَا عَلَى الْحُسْنِ	وَالجَاهِ فَكُنْتَ الْمُبْرَأَ الصَّدِيقًا

استحضر الشاعر قصة النبي يوسف (ع) ليعبر عن عفة الممدوح و طهارته و براءته و صدقه و هى أوصاف أضفها القرآن على النبي يوسف (ع)، فينتقى من القصة القرآنية بعض المفردات و التعابير التى تساهم فى تبيان الجانب الإيجابي فى الممدوح و تفى بالغرض تماماً مثل: «راودت، المبرأ، الصديق، الحسن». ولا شك أن إنتقاء هذه الكلمات كانت تحت تأثير المفردة القرآنية و من أجل بلورة هذا الإدعاء نذكر الآيات القرآنية من سورة يوسف: و رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ (يوسف: ٢٣)؛ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (يوسف: ٥١)؛ وَ مَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ . (يوسف: ٥٣)

٢- شخصيات الأنبياء

يقوم البدوى باستعراض شخصية الرسول محمد (ص) فى قصيدة «من وحي الهزيمة» التى سبق و أن تحدثنا عنها فى التراث الدينى أيضاً (الجيل، ٢٠٠٠، ١٩٥)، نقرأ منها:

هَلْ دَرَّتْ عَدْنُ أَنْ مَسْجَدَهَا الْأَفْ	صَى مَكَانٌ مِنْ أَهْلِهِ مَهْجُورٌ؟
أَيْنَ مَسْرَى الْبُرَاقِ، وَالْقُدْسُ وَالْمَهْ	دُ وَ بَيْتٌ مُقَدَّسٌ مَعْمُورٌ؟

الأبيات تحكى قصة المعراج النبوى إلى المسجد الأقصى ففى البيت الثانى يشير الشاعر

إلى ليلة الاسراء سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (الإسراء: ١). كما يذكر إسم الفرس التى كان الرسول يمتطيها تلك الليلة. و فى البيت الخامس يذكر سدرة المنتهى التى مرَّ بها الرسول (ص) فى معراجه و التى أشارت إليها الآيات المباركة: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (النجم: ١٣-١٥). هذا و قد إستخدم الشاعر التاريخ و القرآن معاً للتأكيد على مكانة القدس الدينية و لتبلور للمسلمين عظم المصيبة التى حلت بهم عند سقوط القدس لعلهم ينهضون و يستعيدونها.

فى قصيدة «يا وحشة الثأر» (الجبل، ٢٠٠٠، ١٣٠) يشير الشاعر إلى قصة النبى موسى (ع) و مناجاته الله سبحانه و تعالى فى الوادى المقدس و إقترابه من الطور كما ورد فى القرآن الكريم: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (النازعات، ١٥-١٦)، كما يستحضر فى البيت الثانى قصة النبى إبراهيم (ع) و معجزة الله سبحانه و تعالى حين أنقذه من النيران المشتعلة أو اللهب المضطرم، لذلك أردف لفظه (اللهب) بصفة (القدسى) تنبيهاً و تأكيداً على استحضاره لهذه المعجزة الإلهية:

ناجى على الطور موسى و الندام لنا
فكيف أغفل موسى حين ناجانا
إن أنس النار بالوادى فقد شهدت
عيني من اللهب القدسى نيرانا

بعد ذلك يلمح إلى دكّ الجبل حين يطلب النبى موسى رؤية الله كما ورد فى كلام البارى عز و جل: وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ سَتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (الأعراف: ١٤٣):

نَطْلُ مِنْ أَفْقِ الدُّنْيَا عَلَى غَدِهَا فَتَنْجَلِي الرَّأْسِيَّاتُ الشَّمُّ كُنْبَانَا

٣- الشخصيات المنبوذة

يلمح الشاعر فى قصيدة «فلسفة الحقيقة» (الجبل، ٢٠٠٠، ٣٥٠) إلى قصة ابنى آدم (ع) «قابيل» و «هابيل» بغية خلق مفارقة تصويرية، بين ثنائية الخير و الشر، فيقول:

وَ أَعَادَ مَطْوَى الْعُصُورِ وَ آدَمًا
يَحْنُو بِأَدْمُعِهِ عَلَى هَابِيلَا
مُنِحَ الْخُلُودَ وَ لَا مُيُولَ وَ لَا هَوَى
فَأَبَى وَ آثَرَ غُرْبَةً وَ رَحِيلَا

يستحضر الشاعر فى قوله قصة على درجة كبيرة من الأهمية فى صراع الخير و الشر، و هى قصة قتل «قاييل» لأخيه «هايبيل»، و قد استلهم الشاعر هذه القصة لخلق مفارقة تصويرية و دلالية فى آن واحد، بين الخير المتمثل برفض هايبيل قتل قاييل، و الشر المتمثل بإقدام قاييل على قتل هايبيل. و هذا ما يتضح من خلال قوله تعالى: وَ تَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا، فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأُقْتَلَكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطْتَ إِلَى يَدِّكَ لِيَتَقَتَّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأُقْتَلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . (المائدة: ٢٧-٢٨)

هذا و قد اشير فى الحديث عن التراث التاريخى إلى شخصية فرعون فى قصيدة «فرعون» (الجبلى، ٢٠٠٠، ١٥٥-١٥٦) التى تحدث عنها البدوى فى عدة ابيات مطلعها: «فرعون مصر: و أنت من رشق المصاحف لا الوليد»، تلك الشخصية التى اشتهرت بالطغيان و الجبروت و مخالفة كلام الله عز و جل. كما أشار فيها إلى الوليد و يزيد مع ذكر ما فعلوه من رشق القرآن و قتل الهاشميين مما أدى إلى لصق بصمات الذل و العار على جبينهما طوال التاريخ البشرى.

التراث الأدبى

من الطبيعى أن يكون الموروث الأدبى هو أشد المصادر التراثية أثراً و أقربها إلى نفوس الشعراء المعاصرين، و من بين الشخصيات الأدبية للشعراء مكانة أقرب و ألصق بنفوس الشعراء و وجدانهم، لأنها هى التى عانت التجربة الشعرية و مارست التعبير عنها و كانت هى ضمير عصرها و صوته. فلا غرابة إذن أن تكون شخصيات الشعراء من أكثر الشخصيات شيوعاً فى شعرنا المعاصر و فى ذات الوقت من أكثرها طواعية للشاعر المعاصر و قدرة على إستيعاب أبعاد تجربته المختلفة. (عشرى زايد، ٢٠٠٦، ١٣٨)

فالأدب بالنسبة إلى البدوى يعنى الإرتباط بالتاريخ و التراث القديم، لذلك كان من الطبيعى أن يتأثر البدوى بالموروث الأدبى القديم من شعر و نثر. أما الشخصيات الأدبية، التى حظيت بالقدر الأعظم من اهتماماته فهى شخصيات المعرى و المتنبى، و أبو تمام، و البحترى، و كذلك حظيت أشعار شعراء المعلقات بعناية خاصة عنده من خلال تناص أشعاره مع بعض منها من جهة، و السير على منوالها و طريقة بنائها من جهة ثانية. فى هذه

العجالة سنبداً برصد بعض الشواهد الشعرية من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، لتتيح للمتلقى الإطلاع على الخلفية التراثية لأشعار البدوى وأثرها فى صورته و تراكيبه و ذائقته الأدبية:

١- الشعر الجاهلى: أدرك البدوى أنه باستغلاله الإمكانيات و الطاقات المتواجدة فى الشعر الجاهلى يمكنه توصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة على التأثير و الإيحاء. قصيدة «على أطلال الجزيرة» (الجبل، ٢٠٠٠، ٥١٠) خير مثال يبين تأثير الشاعر بالموروث الجاهلى حيث استخدم الهيكلية التركيبية لبنية معلقة «لبيد» و نظمها كمعلقة لبيد على البحر الكامل و جعل رويها الهاء. يقول البدوى:

عَفَتِ الدِّيَارُ و أَنْكَرَتْ قُصَادَهَا	حَيَا الحَيَا تَلِكِ الدِّيَارَ و جَادَهَا
أَبَلَتْ بَشَاشَتَهَا الخُطُوبُ و أَقْصَدَتْ	فُرْسَانَهَا و تَخَرَّمَتْ أَجْوَادَهَا
و أَبَادَ فِتْنَتَهَا الزَّمَانُ و طَالَمَا	مَرَّ الزَّمَانُ بِفِتْنِيَةٍ فَأَبَادَهَا
حَيَّتَهُنَّ مَنَازِلًا مَهْجُورَةً	سَبَّتِ النَّمِيَةَ هِنْدَهَا و سُعَادَهَا

يبكى الشاعر أطلال الجزيرة العربية و أمجادها، و يسير بالمطلع على سنن الجاهليين فى البكاء على الأطلال متسائلاً عن أهل وده، مما تذكرنا هذه القصيدة و بشكل أساسى بمعلقة لبيد (العامرى، ١٦٣) حيث يقول:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا	بِمَنَى تَابَدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا
فَمَدَافِعُ الرِّبَانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا	خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الوَحْيُ سَلَامُهَا
دِمْنٌ تَجَرَّمُ بَعْدَ عَهْدِ أَنْبِسِهَا	حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا و حَرَامُهَا

لا شك أن المستوى الواقعى لنص البدوى، يرشد القارئ إلى تناص جلى أو ظاهر مع معلقة «لبيد» من حيث البناء أو الهيكل العام للقصيدة، أو النسق الشعرى الذى سار عليه البدوى من خلال تكراره لعبارة «عَفَتِ الدِّيَارُ»، و وقوفه على الطلل.

٢- الشعر العباسى: قصيدة «و أنجَلت نفسى فى النور» (الجبل، ٢٠٠٠، ٣٤٢) تبين بوضوح أنها أنشدت متأثرة باجواء سينية الشاعر البحترى الذى يقول فيها:

أَيْنَ أَمْسِي؟ فَارًّا يَلْوِي بِهِ
حَازَهُ الدَّهْرُ وَمَرَّتْ فَوْقَهُ
يَا لَأَمْسِي وَهُوَ يَجْتَازُ الْمَدَى
قَالَ أَمْسُ هَاتِ عَنْ صَاحِبِنَا
مُجْتَلِي بَدْرٍ وَلَا لِأَلَاءِ شَمْسٍ
لُجَجٌ أَخْطَأَهَا عَدَى وَحَدْسِي
بَيْنَ أَشْبَاحٍ مِنَ الْأَيَّامِ خُرْسٍ
وَابْعَثِ الذِّكْرَى فُطُولُ الْعَهْدِ يَنْسِي

هذه القصيدة تذكّرنا بسينية البحترى، التي يصف فيها إيوان كسرى (البحترى، ١٣٠٠ هـ.ق،
:١٠٨)

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي
وَتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعَزَعَنِي الدَّهْرُ
وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبْسٍ
رُ التَّمَاكُ مِنْهُ لِنَعْسِي وَنُكْسِي

هناك مقارنة واضحة بين النصين في المفردات و التشكيل البنائي للقصيدة في الوزن، و القوافي، و حركة الروي، فالبدوي في قصيدته يُحوّر في سياق أبياته، لتتفرد ببعض الميزات و الخصائص، عن نص البحترى، إما بالشكل التعبيري، و إما بالشكل التصويري، بيد أن التداخل قائم بينهما في المستويين معاً. فهذا هو البحترى يبغى المواجهة و التماسك ضد السطوة الزمنية و يتحلى بالصبر أمام الحوادث شاكياً منها؛ في حين يختار البدوي الهروب و الفرار من مواجهة الدهر الذي يطمس المعالم و الآثار. فكما يلاحظ هناك فارق تعبيري نجده ايجابياً لدى البحترى الذي يتخذ الصمود و التماسك أمام نواب الدهر و مصائبه مقارنة للإختيار السلبي عند البدوي الذي اختار الإستسلام و الهروب.

٣- الشعر الأندلسي: ابن زيدون هو من أبرز الشعراء الأندلسيين الذين تأثر بهم الشاعر بدوي الجبل و هذا التأثير جلي في قصيدته «إلى الحبيبة الصغيرة» (الجبل، ٢٠٠٠، ٤٣٨)،
نقرأ منها:

أَنَا إِنْ بَعُدْتُ عَنْ الدِّيَارِ فَأَنْتِي
حُبِّي وَإِنْ شَطَّ النَّوَى بِمَزَارِكُمْ
لَا تَرْقُبُوا مِنِّي تَنَاسِي عَهْدِكُمْ
أَنَا لَسْتُ أَخْلِفُ بِالنَّوَى مِيثَاقَكُمْ
يَا مَيِّ قَلْبِي فِي دِيَارِكِ بَاقِي
حُبِّي وَ أَشْوَاقِي لَكُمْ أَشْوَاقِي
إِنَّ الْوَفَاءَ الْمَحْضَ مِنْ أَخْلَاقِي
أَوْ تُخْلِفُونَ عَلَيَّ النَّوَى مِيثَاقِي

يعبر الشاعر عن مدى حبه و يؤكد على وفائه للحبيب رغم الفراق و النوى متمثلاً بقصيدة «ذكرى أيام الوصال» لابن زيدون (ابن زيدون، ٢٠٠٥، ١١) حيث يقول:

أضحى التنائي بدِيلاً من تدائِننا و نَابَ عَن طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيَا، وَلَمْ نَتَّقَلَدْ غَيْرَهُ دِينَا
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا

لقد استخدم الشاعر المعانى المتوافرة في أبيات ابن زيدون ليعبر عن تجربة إنسانية قد عانى منها كما كان الحال مع ابن زيدون من قبله.

٤- الشعر المعاصر: لا شك أن تأثر البدوى بشعر بعض أشعار معاصريه دليل على تأثر الشعراء بعضهم ببعض، رغم خصوصية لغة الشعر عند كل شاعر. فهناك بعض الشعراء و من بينهم البدوى يلتقطون صوراً إيحائية من سائر الشعراء لمنح صورهم الشعرية قوة إيحائية و دلالية جديدة، تسهم في تعميق الدلالة، و تعكس في الوقت نفسه ثقافتهم و قدرتهم الفنية.

فعلى سبيل المثال لقد تأثر البدوى بالشاعر جبران خليل جبران فى مستويين: ١- مستوى لفظى جاء على شكل تراكيب بسيطة لا تتعدى الكلمتين مثل «الناى» و «السر» فى الأبيات التالية من قصيدة «شعاع العيون» للبدوى (الجبل، ٢٠٠٠، ٥٣٨) و قصيدة «المواكب» لجبران خليل جبران ٢- مستوى معنوى و هو التأثر بالمنهج و الفكرة و بعض الرؤى أحياناً، دون تضمين ملفوظات النص الآخر بوضوح؛ يقول البدوى:

فأحملي النَّأْيَ و اتبعيني إليها فَمِنَ الْبِرِّ أَنْ يُوَأْسَى الْكَلِيمُ
أسمعها صَوْتِ الْمَلَائِكِ يُرْجِعُ زَهْوَهَا صَوْتُكَ الْوَدَى الرَّخِيمُ
وَأعيدي لَحْنَ الرِّبْعِ ففِيهِ مَا تَمَنَّتْهُ مِنْ هَوَى وَ حَنِينِ
بَسْمَةً فِي الْحَيَاةِ مِنْ شَفْتَيْهَا تَبَعْتُ النُّورَ فِي ظِلَامِ الْحَيَاةِ

.....
شِفَاءُ الدَّاءِ الْعَصَى الْكَمِينِ هِيَ سِرُّ الْحَيَاةِ أَنْشُودَةُ اللَّهِ

و يقول جبران:

عَطِنِي النَّأْيَ وَ غَنِّ فَالْغِنَا سِرُّ الْخُلُودِ

وَأَنْبِيُ النَّأْيِ يَبْقَى بَعْدَ أَنْ يَفْنَى الْوَجُودُ
أَعْطِنِي النَّأْيَ وَغَنًّا وَ أَنْسَ مَا قُلْتُ وَقُلْتُ
إِنَّمَا النُّطْقُ هَبَاءٌ فَأَفِدْنِي مَا فَعَلْتَا

تتضح عبارة البدوي «فأحملي النأي و اتبعيني إليها»، متقاربة لعبارة جبران «أعطني النأي وَ غَنًّا»، حيث يرمز المعنى في العبارتين إلى التجدد و الثورة على المآسى و الأحران و على الموت أيضاً، و يؤكد أيضاً على استمرارية الحياة في نبضها و صفاتها الروحي. و قد نجد الأمر نفسه في العبارتين: «هي سِرُّ الحياة أنشودة الله» للبدوي و «فالغنا سِرُّ الوجود» لجبران اللتين تعكسان حب الشاعرين و عشقهما للحياة، و ما الغناء إلا انعكاس حقيقي لنفسيتهما المتفائلة بالوجود و الحياة.

التراث الصوفي

لقد تأثر البدوي بعالم المتصوفة، لذلك تتمثل رموزهم في مكونات نصوصه الشعرية، مما ساهم في توجيه المتلقى نحو تلك النصوص و إحيائها في ذاكرته. ففي قصيدة «اللَّهْبِ الْقُدْسِيِّ» (الجبيل، ٢٠٠٠، ٣٩١) يلمح الشاعر بالفداء الذي قدّمه النبي إبراهيم (ع) و تم فداؤه من قبل الله بذبح عظيم، ليستنبط منه المعنى الصوفي من رغبته في الفناء لله و الموت في سبيله حيث يؤثره على الحياة:

آمَنْتُ بِاللَّهْبِ الْقُدْسِيِّ مِ ضَرْمُهُ أَذَكَى الْأُلُوهُةَ فِينَا حِينَ أَذْكَاهُ
تُزِينُ الرُّوحَ قُرْبَانًا لِفِتْنَتِهِ وَ قَدْ يَضِنُّ فَتُسْتَجْدِي مَنَائِيهُ
وَلَوْ أَقَامَ الضَّحَايَا مِنْ مَصَارِعِهَا لَأَثَرَتْ مَوْتَهَا فِيهِ ضَحَايَاهُ

الآبيات كما تبدو «ذات نفس روحاني معنوي صوفي، حيث الحب الطاهر النير المنير و لا محبوب دنيوي فيها. فهناك إشارة إلى قصة النبي إبراهيم (ع) مع استذكار النار المعجزة، حيث الأمن و الإستقرار و الرضا بإرادة الله سبحانه و التضحية بروح الرضا على أحسن صورها، فالضحايا في مثل ذلك الموقف الحرج يفضلون الموت في سبيل المحبوب و حسب إرادتهم على الفداء الذي جاء ليحل محلهم و يفكهم من قيد الموت المحتوم. و هو

تصوير شعرى معاصر لمفهوم صوفى تراثى خاض فيه المتصوفة كثيراً و صاغوه شعراً لما بين التجريبتين الصوفية و الشعرية من علاقة فهناك من قال: إن كلنا التجريبتين الصوفية و المعاصرة، تبحثن عن غاية واحدة، و هى العودة بالكون إلى صفائه و إنسجامه». (عبدالصبور، ١٩٦٩، ١١٩)

استنتاج

تمكنت هذه الدراسة المتواضعة التوصل إلى النتائج التالية:

- ١- إن للتراث عند البدوى أهمية خاصة فى الكشف عن البنية الفنية لقصائده من خلال متابعة هذه الظاهرة.
- ٢- من الظواهر اللافتة فى إستخدامات اللغة الشعرية عند البدوى إحتوائها الأدائى لمعطيات التاريخ و دلالات التراث، يقوم الشاعر بإستلهاام الحدث التاريخى و الشخصيات التاريخية بغية توظيفها فى بنية النص بما تحمله من دلالات و إشارات.
- ٣- توظيف المعطيات القرآنية لم يقتصر على الإشارة القرآنية، أو الإيماءة أو اللفظة، أو الآية، أو التركيب، و إنما تعدى ذلك كله إلى استحضار المعجزات و القصص القرآنية و يمكن القول إن توظيف التراث الدينى فى الشعر يصبح تعزيزاً قوياً لشاعريته و داعماً لإستمراره فى ذاكرة الإنسان.
- ٤- إن لغة البدوى الشعرية حية نابضة بثقافة كل العصور، مما جعل قصائده مشحونة بفيض هائل من الدلالات التراثية.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

ابن زيدون، ٢٠٠٥، "ديوان ابن زيدون"، تح: عبد الله سنده، بيروت، دار المعرفة، ط ١.

إبن منظور، ١٩٩٩، "لسان العرب"، بيروت، دار صادر.

الأشتر، عبدالكريم، ٢٠٠٨، "شعراء شاميون قدامى و محدثون"، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط ١.

البحترى، ١٣٠٠هـ، ق، "ديوان البحترى"، تح: عبيد الله الشيرازى، قسطنطينية، مطبعة الجوانب، ط ١.

- الجابري، محمد عابد، ١٩٩١، "التراث و الحداثة"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢.
- الجبيل، بدوى، ٢٠٠٠، "ديوان بدوى الجبل"، قم المقدسة.
- الجندي، أحمد، ١٩٦٥، "شعراء سورية"، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ١.
- الخير، هانى، ١٩٨٣، "يحدثونك عن أنفسهم"، دمشق.
- الدسوقي، عمر، ١٩٦٦، "فى الأدب الحديث"، بيروت.
- الدهان، سامى، ١٩٦٨، "الشعراء الأعلام فى سوريا"، بيروت، دار الأنوار، ط ٢.
- شريح، عصام، ٢٠٠٥، "الظواهر الأسلوبية فى شعر بدوى الجبل"، دمشق، منشورات إتحاد كتاب العرب.
- العامرى، ليبيد بن ربيعة، "ديوان ليبيد بن ربيعة"، بيروت، دار صادر، د. ت.
- عبد الصبور، صلاح، ١٩٦٩، "حياتى فى الشعر"، بيروت، دار العودة، ط ١.
- عشرى زايد، على، ١٩٩٧، "إستدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر"، القاهرة، دار الفكر العربى.
- عكاش، مدحة، ١٩٦٨، "مختارات من بدوى الجبل"، دمشق، دار الثقافة.
- القنطار، سيف الدين، ١٩٩٧، "الأدب العربى السورى بعد الإستقلال"، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
- كامبل، روبرت ب، ١٩٩٦، "أعلام الأدب العربى المعاصر (سير و سير ذاتية)"، بيروت.
- الكبيسى، طراد، ١٩٧٨، "التراث العربى كمصدر فى نظرية الإبداع و المعرفة فى الشعر العربى الحديث"، بغداد، منشورات وزارة الثقافة و الفنون.
- ناصر، مصطفى، "دراسة الأدب العربى"، القاهرة، الدار القومية للطباعة و النشر، د. ت.
- وتار، محمد رياض، ٢٠٠٢، "توظيف التراث فى الرواية العربية المعاصرة"، دمشق، منشورات إتحاد الكتاب العرب، ط ١.